0/2/04

AL ANWAR

Publié par DAR ASSAYAD · تصدر عن دار الصياد

ص 16

المحامي، الاديب والشاعر في ذكراه الستين

نجيب خلف... «ما نقلت معجماً بل نقلت جبلاً»!

كان محامياً لامعاً، وشاعراً مميزاً، واديباً مرموقاً، وظريفاً فكهاً، صاحب مواقف ثابتة، ورؤى واضحة، وجراة نادرة. ابن بيت عريق ومحتد كريم سام في مكارم الاخلاق رفيع في الادب الاصيل، عريق في الوجاهة، وحسن الضيافة، ذلك هو المحامي اللوذعيّ الذي برز في زمانه، فكانت له الكلمة المسموعة، والعبارة الرنانة، اللتان تشدان الاسماع اليه وتلفتان النظر الى جديده. انه الاديب الجامع لفنون شتى، ذو الالمعية النافذة الى القلوب والانفس، تجده قريبا من كل الطوائف والمذاهب على اختلافها وتنوّع مشاربها.

هذا هو الرجل الرجل والفرد الفذّ والشخصية المحبية، عنيت به المحامي نجيب خلف الذي كانت الاضواء تسلط عليه في تلك الفترة من الزمن. ولما تخفت بعدُ.

منذ فترة زمنية بعيدة وانا اسمع به واقرأ له، في الصحف وفي المجلات، وعلى الاخص مجلة «الحقوق» التي كانت لا تزال تصدر في عام ١٩٣٢. وكان القاضي فؤاد حميّة، الذي كانت تجمعني به اواصر الصداقة وحب التعاون، قد حدثني في السابق انه عثر لي بين اوراقه - اي اوراق نجيب خلف - على مراسلات وكتابات بينه وبين القاضي الفقيه عباس حميّة وقصائد بينه وبين القاضي فؤاد، هي قصائد تهنئة ومناسبات اجتماعية مختلفة.

منذ ذلك الوقت، اي منذ عشر سنوات، تعلّق قلبي بهذا الرجل العصامي المحامي نجيب خلف، وودت ان اعرف عنه شيئاً اكثر، وان احظى بمعلومات كافية كي اضمه الى مجموعة اعلام كتبت عنهم وظهرت سيرهم تباعاً في كتب تضم سير اشخاص كان لهم فضل كبير في مجتمعاتهم واذوا خدمات جلى لوطنهم، وعرفوا بالمزايا الفاضلة والاعمال المجيدة، فكانوا منائر في تضحياتهم وحبهم للمصلحة العامة.

ومرّت الايام ... الى ان أتيحت لي الفرصة بتلقّي اتصال هاتفي، من رجل ذكر لي ان اسمه ابراهيم يوسف خلف، واعتقد انه يمتّ بصلة قرابة الى هذا الرجل، ووعدني بأن يرسل اليّ ما يفيدني في سيرة المحامي نجيب. وكان ان ارسل اليّ الاستاذ ابراهيم مجموعة من كتاباته واعماله الادبية.

بداية الحكاية

ولد نجيب خلف في بسكنتا، في ٢٥ نيسان سنة ١٨٨٢ من ابوين ارثوذوكسيين، وتعلم في المدرسة «الشرقية والبسكنتاوية» التي كانت تديرها البعثة الروسية، ومنها انتقل الى مدرسة سوق الغرب الاميركية حيث اكمل دراسته الثانوية.

درس الحقوق على اخيه ملحم وعلى المتفوقين في الشرع امثال سليم باز والياس كسبار. مارس مهنة المحاماة بعد تخرّجه اكثر من اربعين عاما كان في خلالها مثال الاستقامة، ولا عجب في ذلك فقد كان قساً معمدانياً متشدداً سيم كاهنا في عام ١٩١١، فكان يحاسب نفسه على الهفوة او الغلطة التي يرتكبها ولو كانت بسيطة.

انشأ في العام ١٩١٠، بالاشتراك مع شقيقه ملحم وسليم المعوشي، مجلة «الحقوق» وهي اول مجلة حقوقية في جبل لبنان، ولكنها توقفت عن الصدور مع بداية الحرب الكونية الاولى، ثم عاد يصدرها مع اخيه بنايوت من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٣٢.

نظم الشعر ولم يكن تجاوز الثانية عشرة من عمره، فكان يراسل الصحف والمجلات اللبنانية، وكان اكثر شعره سياسياً واجتماعياً جمع منه نحو اربعة آلاف بيت. وله كتاب قانوني فقهي بعنوان «المشكاة المضية للاصول الجزائية» وله كتاب «لماذا» في النحو، وله ترجمة لـ«العهد الجديد» من اللغة اليونانية بالتعاون مع المطران بولس ابي عضل مطران جبل لبنان لطائفة الروم الارثوذكس. وله «معجم للغة» قرّظه الادباء وقالوا فيه قولاً جميلاً. قال خليل مطران: «انك يا استاذ نجيب ما نقلت معجماً بل نقلت جبلاً».

وقال عبد الوهاب عزام يوم انعقاد المؤتمر الثقافي العربي في لبنان سنة ١٩٤٧: «ان معجما مثل هذا هو عمل جبابرة لا عمل فرد وجريمة بقاء هذا الكنز دون ان ينشر». واشاد به ايضاً الاب لويس شيخو اليسوعي والاب انسطاس الكرملي واحمد زكي باشا ويوسف اسعد داغر.

وفي يوم ١١ تموز سنة ١٩٤٤، وفيما كان الاستاذ خلف يترافع امام محكمة الاستئناف المختلطة، فاجاه انفجار دماغي اودى بحياته لتوه.

قال عنه المحامي الشاعر بولس سلامة، في حفلة إحياء ذكراه بتاريخ ١٩٦٤/٦/١٤، نشرت وقائعها جريدة «الصفاء» بتاريخ ١٩٦٤/٦/٢٨: «كنت في سنة ١٩٢٧ محامياً متدرجاً. واتفق لي انني رافعت في دعوى مدنية لدى حاكم صلح بيروت الشيخ يوسف زخريا، فتعمّدت الاناقة في الاداء يقينا مني بأدب الشيخ ونفوره من الرطانة الفاشية، اذ القضاء مختلط، وسواد المحامين الشباب يتباهون بجهلهم اللسان العربي، ويلثغون بالراء قصداً، كأنهم على ضفة «السين» شهدوا الدور، وكأن العجمة سمة الحضارة، فلمّا أنهيت دفاعي تلقاني نجيب خلف مهنئاً، ودعاني الى معاونته في مكتبه ففعلت ولزمته حتى وليت القضاء».

واضاف الشاعر سلامة معرّفاً بخصائص نجيب خلف: «وفي جملة خصائص نجيب خلف وفاؤه لصحبه، فقد عادني في بعبدا سنة ١٩٣٩، وكنت يومئذ مغلفاً بالجبس، وقد انقض من حولي المقربون الذين يقيسون الانسان بمقياس المنفعة والسلطان. ولما همّ بمغادرة الغرفة شعرت انه دسّ اوراقاً تحت وسادتي، فتبينتها فاذا هي اوراق مالية فالح واعتذرت واعدتها شاكراً».

«وفي سنة ١٩٤٣ كان آخر لقاء به في مستشفى الروم، بعد ذلك بسنة سمعت خبر وفاته، هوى نجيب خلف ميتاً بل شهيد رسالة امام قوس المحكمة، وهي ميتة لو كان لصاحبها الخيار لما اختار اشرف منها، فان ذلك اللسان الصادق بالحق انطلق محامياً، وعلى الحق استقر في أخر هنيهة من العمر».

عبدالله قبرصي يتذكر

وكان للاستاذ عبدالله قبرصي مداخلة عن الفقيد في كتابه «عبدالله قبرصي يتذكر» الصادر في بيروت، سنة ١٩٨٢، يقول: «سمعت نجيب خلف يتحدث عن الاستقلال، في حفلة ختامية لمدرسة البنات الارثوذكسية، في طرابلس سنة ١٩٢٧. كنت على وشك الحصول على شهادة الدروس الثانوية، هزّني بفصاحته وبلاغته، كما هزّتني روحه الوطنية الاستقلالية، كما كنت اعيها. وبعد ان تلاقينا كمحامين في قصر العدل لم تسمح الظروف بأن تنشأ بيننا صداقة عبر الزمالة. كان الرجل اقدم مني سناً. واشتهر في عالم المحاماة كما في عالم اللغة. كان يؤلف قاموساً. يؤلف في السيارة في المحكمة في الترامواي. كان الرجل مأخوذاً في شبه حرارة رسولية. كان القلم خبزه وزاده وحلمه وامانيه».

نجيب خلف

من قصائده الغراء قصيدة بعنوان «على رابها البيضاء قد عُقد النصرُ»، نختار منها هذه الابيات:

تنكّرت الايامُ واستعجمَ الدهرُ
وقد ملأ الدنيا التعسّفُ والغدرُ
وجاشتْ نفوسُ الناسِ غضبى وإنّما
لغيرِ مُروآت اطاح بها الوغرُ
فقتّلَ بعضُ الناسِ بعضاً كأنّما
بُغاثُ سوادُ الناس والسائدُ الصقرُ
بل الوحشُ لايسطو على الوحشِ مثلهُمْ
وفي صدرهِمْ غل وفي خُلقِهِمْ غمْرُ
تضرّيهُمُ الأطماعُ والحيفُ والعدا
ويدعوهُمو للفتكِ خُلقُهمُ الوَغرُ
وكم جائعٍ في الناسِ ما رُدَّ طَلْبَةً
يَسوقُهمُو خسْفَ العبيدِ ويضطرُّ.

❖ ❖ ❖

هكذا توفي المحامي والاديب نجيب خلف وهو في عزّ عطائه، فكان لعطائه هذا وحسن مسلكه بين اصدقائه ومقدّري فضله وعارفيه، أبعد الاثر فيهم. وكان نجيب خلف ملاحقاً امام محكمة استئناف الجنح المختلطة بدعوى تحقير القضاء، وقد وردت العبارة التي لوحق من اجلها امام هذه المحكمة في لائحة قدمت في دعوى الرمول العالقة امام محكمة استئناف بيروت المدنية برئاسة القاضي وجيه خوري، تعليقاً على قرار اعدادي كان صدر في الدعوى، وقد تخوّف نجيب خلف يومها من خصمه في الدعوى المحامي الشيخ بشارة الخوري. وجاء نص العبارة التي ترجمت من الفرنسية الى العربية بناء على طلب التفتيش القضائي «هذه المساواة التي لم يشعر احد فريقي الدعوى بوجودها بينه وبين خصمه». فاعتبر التفتيش على هذه العبارة منه تتضمن تحقيراً للقضاء وقرر احالة كاتبها «نجيب خلف» على المحاكمة. جلس نجيب على المقعد وانحنى فوق الملف الذي كان امامه، واعتقد من في القاعة انه انحنى ليلتقط قرار الادعاء الصادر بحقه لكن انحناءه طال وما اعتدلت قامته. فاستغربوا الامر، وتقدموا منه فاذا به ميت، قد فارق الحياة، ووجهه ابيض كالشمع.

وهكذا قضى من كان محامياً مدافعاً عن الحق تحت قوس المحكمة، ومن كان مدافعاً عن اللغة العربية حتى آخر لحظة من حياته، ومن كان زائداً عن كرامته عنفوان شهامته، ومن كان خادماً لوطنه.

نجيب البعيني